المحاضرة التاسعة

الاتجاه النقدي الرمزي

تمهيد:

ظهر الاتجاه النقدي **الرمزي** إبان القرن التاسع عشر ميلادي، ضمن الحركة النقدية الحديثة، حيث جاء كرد فعل على الاتجاه النقدي **الواقعي**، الذي أفل نجمه كنتيجة لعدم قدرته على سد المتطلبات الفنية والجمالية والعلمية للذوات المتلقية للإبداعات الفكرية/ الأدبية/ الفنية. بالإضافة إلى عدم التفاته للإطار الروحي للنفس البشرية، وما تزخر به من مقومات الإبداع، كما ارتضى تصوير الظواهر الواقعية الجزئية، من خلال تركيزه على الأبعاد العلمية والتجريبية. لهذه الاعتبارات وغيرها برز هذا **التوجه النقدي الرمزي**، آخذا على عاتقه الغوص في عمق النفس البشرية من أجل الكشف عن مكنونات تلك الروح المبدعة، التي تترجم الكثير من الوقائع إلى أحاسيس وأوهام جميلة، تتجلى إلى الوجود على شكل إبداعات أدبية وفنية. من أجل ذلك نفت الرمزية من أن تكون الظواهر حقائق قابعة في العوالم النفسية، كما أن الوسائل العلمية غير قادرة على الكشف عن " **الواقع الحقيقي** " القابع في عمق روح النفس البشرية وعلى هذا الأساس فالاتجاه الرمزي:« يؤمن بأن الحقيقة البشرية باطنة خافية، وأن المشاهد الواقعية في المجتمع ليست إلا ألوانا من الإيهام والتمويه وأن الذي ينشد الحقيقة عن طريق

الاكتفاء بملاحظة الظواهر قد يكون كمن غرّه السراب »[1]. هذا ما يعني في جانب آخر أنها تنظر لتكوينية الإبداعات الأدبية والفنية من خلال ما تترجمه روح النفس البشرية من إبداعات ساحرة قائمة على صهر المركّبات اللغوية والنصية للإبداع في بوتقة الإطار الرمزي الروحي للغة الإبداع، وهذا ما تمثله- **بودلير**- في إبداعاته الشعرية، بحيث كان: « السباق في الإشارة إلى استخدام الرمز في الإبداع الأدبي، لذلك جاء شعره خليطا من الرموز الرومانسية والصوفية والكلاسيكية »[2]. ولعل هذا ما أكد عليه - **فرلين** - في معرض حديثه عن المكنونات الرمزية للغة الإبداع من **إيحاء/ غموض/ إيهام** والتي اعتبرها في مؤلفه " **الفن الشعري** " عام **1884**، كأسس لبعض المفاهيم الرمزية، لكن الريادة النقدية للاتجاه الرمزي كانت على يد - **مورياس** -من خلال كتابه " **عن الرمزية**" عام**1886**، وأما "**رامبو**" فقد نظر إلى العمل الإبداعي نظرة رمزية قائمة على السحر الفني المنفلت من فعل الاضطراب المعنوي الحسي للكلمة، لذلك فإن خلق الأفعال الجمالية يفضي إلى تجلي عوالم رمزية جديدة، تحملها الكلمات وتعبر عنها تعبيرا حسيا من خلال استحضار الواقع النفسي والروحي. وفي السياق نفسه شدّد "**مالارميه**"على إعطاء/ إضفاء معاني شفافة/ نقية للكلمات، وهذا من أجل أن تتحقق رمزيتها الدلالية والفنية ؛ لكن هذا لا يعني في جانب آخر تحويلها إلى إطارها المحلي مما يجعلها تحمل معنى تقليديا ؛ بل الأمر يستدعي إعطاءها بعدا رمزيا فنيا قائما على إبراز التناغم المحسوس الذي يتجلى عبر رنين الكلمات في

[1]- عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، ص: 251

[2]- ينظر: عباس بن يحي: مسار الشعر العربي الحديث والمعاصر، ص: 104.

انسجامها المركب، بحيث إنه يضيء العبارات الأدبية، سواء كانت في الشعر أم النثر، كما أن السياقات المحسوسة للكلمة تساهم هي الأخرى في إضاءة هذه المركبات المحسوسة اللغوية والروحية، **فالكلمة الشعرية** حاملة لقيم موسيقية فنية ورمزية، هذا ما يجعل في جانب آخر الأغراض الأدبية تتلون بصور رمزية وفنية. من أجل ذلك فقد أكد – **مالارميه** – على: « أن مادة الشعر هي – الفكر الرمزي – الذي يستبعد في مساراته الفكرية واللغوية الرمزية كل المعاني النمطية والسطحية أي المحددة سلفًا »[1].

–الملامح النقدية الرمزية في الإبداع:

لعل الأهمية الفكرية واللغوية التي يكتسبها الرمز الأدبي في الأعمال الأدبية، جعل النقاد الرمزيون يعتبرونه أنه: « يكون في أحايين كثيرة غير محدد الإشارة، وذلك حين يُستخدم لينطبق على أسرة كبيرة من الأشياء والمواقف بينها شبه ظاهر أو شبه خفي »[2]، من أجل هذا فقد أولى النقد الأدبي الحديث أهمية فلسفية/أدبية/نقدية لفعل الرمز ضمن عمليات التشكيل الأدبي، بحيث إنه يمتلك قدرة تناسلية دلالية ودلائلية، هذا ما يبرز في جانب آخر علاقة تطور الذات المبدعة ضمن مسار الإبداع من خلال الوضعيات المختلفة التي تتموقع فيها، ففي **المرحلة الكلاسيكية** قامت جمالياتها بالتركيز على الفكرة الواضحة والدقيقة، وأما في **المرحلة الرومانسية**، فجماليتها نهضت على استثمار الصور المحمّلة بالعواطف والأحاسيس المنتشرة، في حين أن **المرحلة الواقعية**، تجلت جماليتها من خلال

---

[1]– ينظر: فيليب فان تيغم: المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، تر: فريد أنطنيوس، عويدات، ط2، بيروت، 1980، ص: 281.

[2]– زكي نجيب محمود: في فلسفة النقد، دار الشروق، القاهرة، 1983، ص34.

استحضار الواقع المحمل بالقيم السوسيوتاريخية. وأما **المرحلة الرمزية** فجماليتها قامت على الاستبطان النفسي الروحي للإبداع القائم على عناصر الغموض الرمزي، الذي له علاقة بأشكال القلق النفسي، بحيث تبدو وكأنها في حالة اضطراب وتهيج.

إن البحث عن **الحقيقة الإنسانية**، في عرف **الرمزيين**، لا تتحقق إلا من خلال التأمل وإعمال الفكر والبصيرة، هذا ما يستدعي في أحايين كثيرة – وحسبهم– الخلود/ الاستسلام لأحلام اليقظة، التي ربما على أساسها، تنهض أفعال: الإيحاء/ الإيهام/ الإبداع القابعة في أعماق الروح النفسية، والمنتجة للإبداع من خلال الانطباعات الحسية، بحيث تتفاعل فيما بينها لتصل إلى حالة البروز والظهور، على شكل إبداعات فكرية/ أدبية/ فنية، تحاول الذات الإنسانية، أن تتستر عن ما يقبع في نفسها، من خلال إعطاء الإبداع أبعادا رمزية. لذلك فإن المبدع الذي يؤمن بعقيدة الاتجاه الرمزي، يتخلى كلية في عملية التشكيل التعبيري عن الإفصاح والإيضاح، وبالمقابل فإنه يحرص على التشكيل الرمزي والإيحائي للتعبير، مما يجعل رؤيته الإبداعية: « أقرب إلى الصوفية التي تأنس بما وراء المنظور أو عالم الحس، ولكنها صوفية اجتماعية موصولة بالإنسان على ظهر الأرض »[1]. لذلك فإن الكشف أو التصريح بالحقائق والوقائع الإنسانية —حسبهم– قد يقتل سر جمال الحقائق في حد ذاتها، لهذه الاعتبارات وغيرها، لجأ الرمزيون إلى استثمار عناصر " **الإيماء** "– **البانتونيم**– كإطار رمزي قادر على احتواء الخلجات النفسية والإحساسات الروحية فنيا وأدبيا. لذلك فإن الإبداع الشعري الرمزي في

[1]– عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، ص252.

عرفهم لا يُعلم/ يلقن بقدر ما يهذب/ يوجه، من خلال الإيحاء والإيماء، بعبارة أخرى: إنه لا يحدد الموجودات بعينها، بقدر ما يحاول أن يخلق لها معادلات رمزية، تحقق للإبداع قيمته الجمالية والفكرية، لذلك فعنصر " **الإيقاع الموسيقي** " قد شكل بالنسبة للرمزيين نسقا فنيا عضويا ضمن عملية التشكيل الإبداعي الشعري، وضمن هذا السياق يمكن الإشارة إلى بعض الملامح الرمزية التي تجلت من خلال عنصر " **الإيقاع** " في شعر – **سعيد عقل** – من خلال مختلف العناصر الرمزية كالغرابة/ الإيحاء/ الإيقاع في قصيدة " **ليلة ماطرة** " يقول:

تُمطِر أو تبْكِي دُرَر * وأنَّتين مِن وَتـــــــر**

لَذيذَة كَكُل صعب * أو كـــــرَحلاَت فَجْر**

إن تواتر الصور النفسية جعلت من الإيقاع يؤطر بؤرة رمزية روحية، تؤلف داخليا وخارجيا انتظاما إبداعيا، يعيد خلق اللحظة الروحية النفسية في الإبداع خلقا رمزيا، لذلك جاءت أفعال الاستمرار: تمطر/ تبكي، محركة لمشاهدة غامضة وجميلة، جاءت وفق حركة مبهمة ورمزية في الوقت نفسه.

ومما سبق ذكره يمكن القول: إنّ **الاتجاه النقدي الرمزي** قد تبوأ في الساحة النقدية الحديثة مكانة مهمة، لكن هذا لم يمنعه من أن يتقهقر، بسبب المجالات التي كان يتحرك فيها، بحيث إنه كان يعانق مظاهر الفكر الرفيع والحس الرهيف والروح النقية، ومن ثم كان يحتضن الخاصة من أفراد المجتمع في تلك الفترة، أما العامة منهم فلم يستطيعوا هضم مبادئ الرمزية، بسبب عدم القدرة على

استساغتها، هذا بالإضافة إلى أن هذا **التوجه الرمزي** ذو بعد فكري أرستقراطي، ومن ثم فهو جاء كرد فعل لانتشار الفكر التحرري آنذاك، ذلك أنهم وعلى مستوى الإبداع الأدبي لم يحرصو أشد الحرص على تمثل المجتمعات والأوطان والأجيال، بقدر ما حاولوا تمثل أرواحهم النفسية تمثلا فكريا/ أدبيا/ فنيا.